مدريد

مجرد ملكة رائعة أم جمال حقيقي أيضاً؟

> أرمين غيمر

برشلونة، إشبيلية، فالنسيا، وقرطبة... "هناك العديد من النساء الجميلات في إسبانيا ولكن لا يوجد سوى ملكة واحدة". وهذا هو على الأقل ما يقوله المثل قديما. والواقع أن النقاش سيظل قائما على الأرجح لمائة سنة مقبلة حول ما هي أجمل مدينة إسبانية. ولكن فقط مدريد تمثل الطابع المحدد لإسبانيا الحديثة. ومنذ ترشيحها عاصمة للدولة في سنة 1556 لم تستطع أية مدينة أخرى أن تنافسها.

إن المدن التي لعبت أي دور ذي شأن في التاريخ كان تأسيسها بالقرب من الخلجان، ومصاب الأنهار أو الطرق التجارية الهامة. ونظرا لما لها من مواقع استراتيجية، فقد أصبحت مدنا تجارية هامة مكتسبة للثروة، والسلطة والنفوذ السياسي. وهذا هو السبيل الأمثل والنموذجي لصعود مدينة ما لتصبح عاصمة للدولة. وتنتمي مدريد إلى المدن القليلة التي هي استثناء من هذه القاعدة. والخاصية الوحيدة المميزة لمدريد هي موقعها بالضبط في وسط شبه الجزيرة الآيبيرية. وعلى وجه الدقة، فإن ساحة "بويرتو دل سول" ليست قلب مدريد القديمة فقط ولكنها أيضا تمثل وسط البلاد. وهذه هي النقطة التي تبدأ منها جميع الطرق السريعة، منتشرة في جميع الاتجاهات، على شكل امتدادات نجمية، مكونة شبكة للوصول إلى جميع المناطق.

مبنى الميتروبولس في شارع غران فيا
The Metropolis building on Gran Via

وبالنسبة إلى التاريخ الإسباني أو الأندلسي، يكون التركيز على مدريد جديدا نسبيا. وقياسا إلى غيرها من المدن الإسبانية، فإن مدريد، التي هي اليوم مدينة كبيرة جدا، لم تكن مهمة مطلقا قبل ألف سنة ماضية.

مدريد أسسها العرب

إسم مدريد هو تعديل كلمة "ميريد" التي يمكن ترجمتها بشكل تقريبي إلى اللغة العربية بـ"قرب المياه". ويحتاج أمر اكتشاف الآثار التي تشهد على تاريخ تأسيس المدينة إلى كثير من الاهتمام والبحث من قبل السياح الذين يزورون مدريد الحديثة. وتحت قصر مدريد يمكن للمرء أن يجد بقايا جدار المدينة العربي القديم. وما عدا بعض أسماء الشوارع وحديقة صغيرة تحمل إسم مؤسس المدينة محمد الأول، تظل هذه البقايا النادرة من الجدار شاهدة على مدريد العربية. وفي القرن التاسع الميلادي بنى أمير قرطبة جدارا لحماية المملكة الإسلامية، وخاصة توليدو، من هجمات الجيوش المسيحية من الشمال. وفي بحثه عن مكان مناسب لتعزيز خط الحدود، اكتشف المكان الذي يقف فيه قصر المدينة اليوم. وكان هذا المكان بالنسبة له يبدو موقعا استراتيجيا مثاليا فقرر على الفور بناء القصر. ومع ذلك استغرق أمر تأسيس مدينة صغيرة عند سفح هذا الحصن، من قبل الأهالي، عدة سنوات.

من القرية إلى العاصمة

إن الأمة الإسبانية القائمة اليوم جاءت في الواقع نتيجة للزواج. فمع زواج إيزابيلا من الأمير فرديناند الأراغوني اتحدت ممالكهما المستقلة في ذلك الحين. وقد وجدت إسبانيا من هذا اليوم. وأدت زيجات أخرى إلى توحيد المملكة مع تلك التي حكمها الهابسبورغ وكارل الخامس فأصبحت أقوى ملكية في أوروبا. وانطلاقا من نزوة ما، فقد قام ابنه فيليب الثاني، الذي أصبح يومها حاكما لإمبراطورية شاسعة "لا تغيب عنها الشمس أبدا"، بتغيير العاصمة المتروبولية من مدينة توليدو إلى قرية ريفية تسمّى مدريد.

العصر الذهبي

وشكّل القرار تحدّياً رئيسياً للمهندسين المعماريين الملكيين، حيث تعلّق الأمر بتحويل قرية مكوّنة من أكواخ بدائية إلى مركز لمملكة عالمية. وفي وقت قصير جدا، تم بناء المكاتب الحكومية، ومباني القصر ومنازل للدبلوماسيين، ولموظفي الدولة، ولأفراد الطبقة الغنية الأرستقراطية وللفنانين. وما بلازا مايور (الساحة الكبيرة) مع شوارعها الضيقة، وبلازا ديل سول (ساحة الشمس) وقصر الأسكوريال إلا دلائل على هذه الفترة. ويسمي الإسبانيون هذه الفترة

منطقة مخصصة للمشاة قرب ساحة بلازا ديل سول
Pedestrian area near Plaza del Sol

مبنى حكومي
Nuevos Ministerios

تمثال الفنان فلاسكيز امام الميوسيو ديل برادو
Velazquez statue in front of the Museo del Prado

ساحة في الحي القديم
Square in the Old Town

حتى اليوم "العصر الذهبي". ولم ينتج أي عصر آخر هذا العدد الكبير من الفنانين والفلاسفة والشعراء والرسامين. جميع المباني الباروكية التي تزين المدينة اليوم بنيت من قبل الهابسبورغ. باروكية مدريد تشتهر بكونها غير بارزة للأنظار، وعلى المرء أن يمعن النظر ليكتشف الزينة الخفية على المباني. وتحت حكم الهابسبورغ امتدت المدينة من القصر الملكي إلى المكان الذي يحتله شارع دل برادو اليوم، وهو الحي التاريخي الذي لا يزال من الممكن التعرّف عليه من أزقته غير المنظمة.

ومع هزيمة الأرمادا من قبل الإنجليز وقرب نهاية المملكة الهابسبورغية-الإسبانية فقد ظلت مدريد في ارتفاع مستمر. مع حرب الخلافة الإسبانية في 1700م جاء واحد من البوربون إلى العرش، وهو كارل الثالث الذي يعتبر أستاذ بناء مدريد. وجميع المباني على النمط الكلاسيكي الجديد التي تهيمن على المدينة اليوم تعود إلى زمنه. وقد كلّف كارل المهندسين المعماريين الأكثر شهرة في أوروبا لبناء نظام هندسي دائري للشوارع المحيطة بالحي الهابسبورغي. وهكذا أنشئت حول المدينة القديمة وقصور النبلاء شوارع واسعة، مثل كاسالا دي الساكا أو باسيو دل برادو حيث تقع اليوم الصالات الشهيرة لعرض اللوحات. وهذا أيضا المكان الذي جرى فيه بعد أكثر من مائة سنة لاحقة، خلال فترة البيبه إيبوك، بناء المنازل الرائعة لأفراد الطبقة الوسطى الصاعدة والتي هي اليوم غالبا ما تستخدم من قبل البنوك ومكاتب التأمين.

بلاسيو دي كوميونيكاثيونيس
Palacio de Comunicaciones

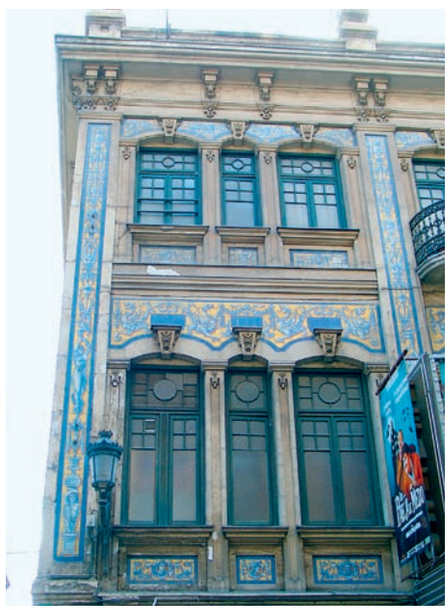

شرفة جميلة
Art Nouveau facade

مدريد اليوم هي مدينة حديثة سريعة التحولات، ومكان وظيفي وعاصمة حيوية. المباني العديدة من فترة الهابسبورغ المحافظ عليها يجعل منها عاصمة عظيمة. ونظرا لما لها من أهمية اقتصادية وسياسية، فقد كسبت الحق في أن توصف بأنها ملكة المدن الإسبانية. ونظرا للشهرة الفريدة من نوعها في العالم لمتاحفها ومزاراتها فهي دائما تستحق الزيارة. ومع ذلك، هناك بعض السياح الذين يشككون في كون مدريد هي "جميلة الأمة" لأن الكثيرين في مشيهم خلال المدينة يهملون النظر إلى العديد من آثار العصر الوسيط والتاريخ الثقافي الذي يميزها عن "الجميلات" الأخريات في البلاد. ■